زَقْزَقَةٌ



تأليف: أحمد عبد الرحيم
رسم: وائل السكري

زَقْزَقَةٌ



تأليف: أحمد عبد الرحيم

رسم: وائل السكري

يا ساتِر... أَنا لا أُطيقُ الطُّيور، أَوْ أَصْواتَها. يَقولون: «يا سَلام، اِسْمَعِ الحَمامَ يَقولُ اُذْكُروا رَبَّكُم، والهُدْهُدُ يَقولُ المُلْكُ لَكَ لَكَ لَكَ يا صاحِبَ المُلْك؟!». أَنا لا أُصَدِّقُ أَيًّا مِنْ هَذا. أَنا أَنْزَعِجُ مِنْ صَوْتِ الحَمام، أَوِ الهُدْهُد، أَوْ ـ الأَسْوَأ عَلى الإطْلاق ـ صَوْتِ العَصافير!

أَرْسِلْني إلى صَحْراءَ حارِقَةٍ، إلى زِنْزانَةٍ ضَيِّقَةٍ... إنَّما العَصافير؟ مُجَرَّدُ اسْمِها فَقَطْ يُزْعِجُني، فَما بالُكَ بِزَقْزَقَتِها؟! إنَّها صَوْتُ أَسْلاكٍ حَديدِيَّةٍ حادَّةٍ تُقَيِّدُني عِنْدَما أُحاوِلُ الرّاحَةَ في مَنْزِلي، إذْ إنَّ جاري مولَعٌ بِتَرْبِيَتِها، أَوْ أَثْناءَ اسْتِغْراقي


7 : 00

فِي العَمَل. بِالمُناسَبَة، أَنا أَعْمَلُ مُديرًا في إِحْدى الشَّرِكات، وأَعْشَقُ الهُدوءَ التّامّ. وهَلْ هُناكَ أَرْوَعَ وأَبْدَعَ مِنْه؟! لَوْ كانَ العالَمُ كُلُّهُ هادِئًا لَسَكَنَتِ النُّفوس، وعَمَّ السَّلام، وعاشَتِ الإِنْسانِيَّةُ أَجْمَلَ عُصورِها.

يَقولونَ إِنَّني شَديدُ الغَضَب، أَزْعَقُ كَثيرًا. نَعَم، أَنا شَديدُ الغَضَب، أَزْعَقُ كَثيرًا، إِنَّما في وَجْهِ مَنْ يُخْطِئ. فَماذا سَيَكونُ شَكْلُ الشَّرِكَةِ لَوْ عابَها خَطَأٌ واحِدٌ، يا لَلهَوْل! هَلْ تَسْتَطيعُ تَخَيُّلَ الهَرَمِ لَوْ عانى مِنْ حَجَرٍ ناقِصٍ؟ لَمْ يَكُنِ القُبْحُ وانْعِدامُ التَّناغُمِ مَصيرَهُ فَحَسْب؛ إِنَّما التَّصَدُّعُ



ثُمَّ الانْهِيار! الخَطَأُ خَطَأٌ؛ مُرْعِبٌ وخَطيرٌ أَيًّا كانَ حَجْمُه. وخَطَأٌ في شَرِكَةٍ قَدْ يُؤَدّي إلى خَطَأٍ في بَلَدٍ، قَدْ يُؤَدّي إلى خَطَأٍ في قارَّةٍ، لِيَخْتَلَّ التَّوازُنُ ويَنْتَهِيَ العالَم!

يَقولونَ إنَّني لا أَضْحَك. وهَلْ هُناكَ ما يُضحِك؟! «اِبْتَسِمْ في وَجْهِ الآخَرين!». أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الحِكَمِ هَذِه؟! ثُمَّ إنَّني مُديرٌ، لا بُدَّ أَنْ يَخافَ مِنّي الجَميع. فَأَنا رَمْزٌ لِلنِّظامِ والإخْلاصِ في العَمَل. إذا ما اهْتَزَّتْ هَذِهِ الهَيْبَةُ اهْتَزَّ مَعَها النِّظام؛ ما سَيَسْمَحُ بِنَفاذِ السّوسِ إلى أَرْكانِ الشَّرِكَةِ كَيْ يَنْخُرَ فيها ويُقَوِّضَ بُنْيانَها.


النظام

دارَ هَذا كُلُّهُ في ذِهْني وأَنا مُجْتَمِعٌ بِأَحَدِ المُوَظَّفين. يَبْدو أَنَّ الغَضَبَ قَدْ رَسَمَ نَفْسَهُ غَضْبًا عَلى مَلامِحي وأَنا أُراجِعُ وَرَقَةً قَدْ أَتَمَّها. يا لَلمَأْساة! لَقَدْ أَخْطَأَ في تَرْقيمِ إِحْدى الصَّفَحات. أَيُّ شَقاءٍ؟! أَخَذْتُ أَتْلو عَلَيْهِ واحِدَةً مِنْ خُطَبي عَنِ التَّرْكيزِ في العَمَل، ويَبْدو أَنَّني بالَغْتُ بَعْضَ الشَّيْءِ في نَبْرَةِ صَوْتي، إِذْ اضْطَرَبَ عَدَدٌ مِنَ النّاسِ في المَبْنى المُجاوِر، وخَرَجوا إِلى شُرُفاتِهِم يَسْتَطْلِعونَ الكارِثَة!

تَجَمَّدَ المُوَظَّفُ الشّابُّ في وَقْفَتِه، ولَمَحْتُ دُموعًا تُكافِحُ الظُّهورَ في عَيْنَيْه. هَلْ قَسَوْتُ



عَلَيْهِ وهُوَ لا يَزالُ صَغيرَ السِّنّ، جَديدًا في العَمَلِ؟ لا أَظُنّ. فَلا بُدَّ مِنَ التَّأْديبِ المُبَكِّر، كَيْ لا يُكَرِّرَ مُصيبَةً مِثْلَ هَذِهِ في مَرْحَلَةٍ أَهَمَّ ومَسْأَلَةٍ أَكْبَر.

بَعْدَ انْصِرافِه، ومَعَ عَوْدَةِ المَكانِ إلى هُدوئِه، أَخْرَجْتُ مِنْديلي كَيْ أُجَفِّفَ شَيْئًا مِنَ العَرَقِ الَّذي سالَ مِنْ جَبْهَتي ساعَةَ الغَضَب؛ فَإذا بي أَسْمَعُ صَوْتًا غَريبًا، صَوْتَ أَنينٍ لَكِنَّهُ لَيْسَ بِالأَنين. هَلْ كانَتْ دُموعُ المُوَظَّفِ تُحاوِلُ كَسْرَ سِجْنِها خارِجَ المَكْتَب؟ لا، هَذا الصَّوْتُ لِكائِنٍ أَضْعَف، أَضْعَفَ بِكَثيرٍ. أَخَذْتُ أَبْحَثُ



عَنْ مَصْدَرِ الصَّوْت، حَتّى أَيْقَنْتُ أَنَّهُ قادِمٌ مِنَ الشُّرْفَةِ المَفْتوحَة. نَظَرْتُ في أَحَدِ الأَرْكانِ لِيُصيبَني الذُّهولُ وأَشْهَقُ شَهْقَةً قَصيرَةً؛ لَقَدْ كانَ هُناكَ عُصْفورٌ عَلى الأَرْض. عُصْفورٌ جَريحٌ، لَهُ جَناحٌ مُلْتَوٍ أَوْ عاجِزٌ عَنِ الحَرَكَة، يُحاوِلُ الطَّيَرانَ بِجَناحِهِ السَّليم، لَكِنْ بِلا جَدْوى. غَصَّةٌ مِنْ أَلَمٍ حادٍّ تَتَمَلَّكُ قَلْبي. هَذا العَجْزُ يُثيرُ شَفَقَتي عَلى نَحْوٍ لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُه. لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَمْسَكْتُهُ بِيَدي، والمِسْكينُ يَرْتَعِشُ مِنَ الرُّعْب، مِنَ الأَلَم، أَوْ مِنَ الاثْنَيْن. كُلُّ ما أَعْلَمُهُ أَنَّني شَعَرْتُ بِنَبَضاتِ قَلْبِهِ الصَّغيرِ



تَرْتَجِف. أَخَذْتُ أُرَبِّتُ عَلى ريشِه، يا لَها مِنْ أَلْوانٍ بَديعَةٍ! دَرَجاتٌ مِنَ الكَسْتَنائِيّ، تَجْعَلُهُ يَبْدو كَأَنَّهُ يَرْتَدي بِزَّةً أَنيقَةً كُلُّها رِقَّةٌ.

ماذا أَفْعَل؟! في يَدي عُصْفورٌ وأَنا أُطَبْطِبُ عَلَيْه. ماذا سَيَقولُ المُوَظَّفونَ لَوْ رَأَوني في هَذِهِ الحالَة؟ رَجُلٌ رَقيقُ المَشاعِر؟ لا، لا.

اسْتَدْعَيْتُ «سُكْرِتيرَتي» ـ وهِيَ سَيِّدَةٌ مُتَقَدِّمَةٌ في السِّنّ، قامَتْ بِتَرْبِيَةِ عَدَدٍ مِنَ الأَطْفالِ سابِقًا كَيْ تَعْتَنِيَ بِالأَمْر، مُحاوِلًا نَفْيَ التَّعاطُفِ الَّذي سَكَنَ مَلامِحي، والعَوْدَةَ إلى جِدِّيَّتي. دَخَلَتِ السَّيِّدَةُ وأَخْبَرْتُها بِالأَمْر؛ فَعَدَّلَتْ مِنْ

وَضْعِ نَظّارَتِها الطِّبِّيَّة، وأَجابَتْني أنَّها لا تَعْلَمُ ماذا تَفْعَلُ «هه؟!». أَرُدُّ غاضِبًا: «كَيْف؟ كَيْفَ لا تَعْلَمينَ التَّصَرُّفَ في أُمورٍ كَهَذِه؟!»، هَزَّتْ كَتِفَها ورَدَّت: «لِأَنَّني لَمْ أَقُمْ بِتَرْبِيَةِ طُيورٍ مِنْ قَبْل!». وَقَفْتُ مُشْتَعِلًا مِنْ هَذِهِ الَّتي تَتَكَلَّمُ



بِهُدوءٍ وافِرٍ، بَيْنَما العُصْفورُ لا يَزالُ يُصْدِرُ صَوْتَ أَنينِهِ المُؤْلِمِ بَيْنَ يَدَيّ.

اسْتَأْذَنْتُ لِنِصْفِ ساعَةٍ، وهَرْوَلْتُ بَيْنَ الغَيْظِ والقَلَقِ إلى الصَّيْدَلِيِّ المَوْجودِ في العَمارَةِ المُجاوِرَة. هَذا الرَّجُلُ لا بُدَّ أَنَّهُ يَعْرِفُ التَّصَرُّفَ في أُمورٍ كَهَذِه، لا بُدَّ مِنْ ذَلِك. لَكِنَّهُ أَخْبَرَني بَعْدَ مُطالَعَةِ حالِ العُصْفورِ أَنَّ جَناحَهُ مَكْسورٌ، وأَنَّ جَبيرَةً لا بُدَّ مِنْ وَضْعِها حالًا. طَلَبْتُ مِنْهُ وَضْعَها حالًا، فَإذْ بِهِ يَعْتَذِرُ لِأَنَّهُ لا يَعْلَمُ كَيْف. أَرُدُّ غاضِبًا: «لا تَعْرِفُ كَيْف؟! كَيْفَ لا تَعْرِفُ كَيْف؟! أَلَسْتَ طَبيبًا؟». يَبْتَسِمُ

ناظِرًا إلَيَّ مِنْ وَراءِ نَظّارَتِهِ الهابِطَةِ إلى طَرَفِ أَنْفِه، مُبَرِّرًا بِبَساطَةٍ: «نَعَم، لَكِنَّني طَبيبٌ صَيْدَلِيٌّ، ولَسْتُ بَيْطَرِيًّا!». فَكَّرْتُ بَيْني وبَيْنَ نَفْسي: «بَيْطَرِيًّا؟! فَهِمْت... طَبيبُ حَيَواناتٍ. لَكِن، هَلْ لِلطُّيورِ عِياداتٌ خاصَّةٌ؟». آآآه، هَذِهِ



الأَسْئِلَةُ كُلُّها والعُصْفورُ يَتَهاوى، النَّظْرَةُ تَذْبَلُ في عَيْنَيْهِ وكَأَنَّ روحَ الحَياةِ فيهِ تَسْتَسْلِم، أَوْ لَعَلَّهُ يَئِسَ مِنّي بِاعْتِباري أَغْبى مِنْ إتْمامِ أَيِّ شَيْءٍ لِمَصْلَحَتِه!

أَسْرَعْتُ إلى مُسْتَشْفى مُجاوِرٍ. «سَأَجِدُ لَكَ حَلًّا أَيُّها العُصْفور، اِطْمَئِنّ واهْدَأ». قابَلْتُ طَبيبًا مُناوِبًا، وبِسُرْعَةٍ تَصَرَّف. أَخيرًا، عَمَلٌ يَتُمّ. ما أَعْظَمَهُ عَمَلاً يُنْجِزُهُ عالِمٌ بِه! فَما أَسْوَأَ الجَهْل!

كانَ الطَّبيبُ يَتَحَرَّكُ داخِلَ عِيادَتِه، بَيْنَ أَدَواتِهِ، والعُصْفورُ راقِدٌ. ثُمَّ بَيْنَ أَدواتِهِ وأَدْراجٍ ما، وكَأَنَّهُ «مايْستْرو أورْكِستْرا» كَبيرٌ، يُخْرِجُ



لَحْنًا مُعَقَّدًا، لَكِنْ بِيُسْرٍ وسَلاسَةٍ. أَحْسَسْتُ بِموسيقاهُ العَذْبَةِ عِنْدَما وَجَدْتُهُ يَلُفُّ الجَبيرَةَ الصَّغيرَةَ حَوْلَ الجَناح. اضْطَرَبَ العُصْفور، وضَرَبَ الهَواءَ بِجَناحِهِ الحُرّ، شاعِرًا بِالأَلَمِ مُحاوِلًا الإمْساكَ بِأَيِّ شَيْءٍ. مِثْلي إذا ما ذَهَبْتُ إلى طَبيبِ الأَسْنانِ لِعِلاجِ سِنٍّ مُتْعَبَةٍ، وإنْ كانَ العُصْفورُ لا يَجِدُ أُذُنَ طَبيبِ أَسْنانٍ ـ كَما أَجِدُها وأَنا مُغْمَضُ العَيْنَيْن ـ لِيَتَمَسَّكَ بِها وَسْطَ اللَّوْعَةِ والكَرَب*!

نَصَحَني الطَّبيبُ بَعْدَ إنْهائِهِ المُهِمَّة، أَنَّ عُصْفوري... هه؟! اِنْتَظِرْ لَحْظَةً. عُصْفوري؟!

*الكَرَب: الحُزْن

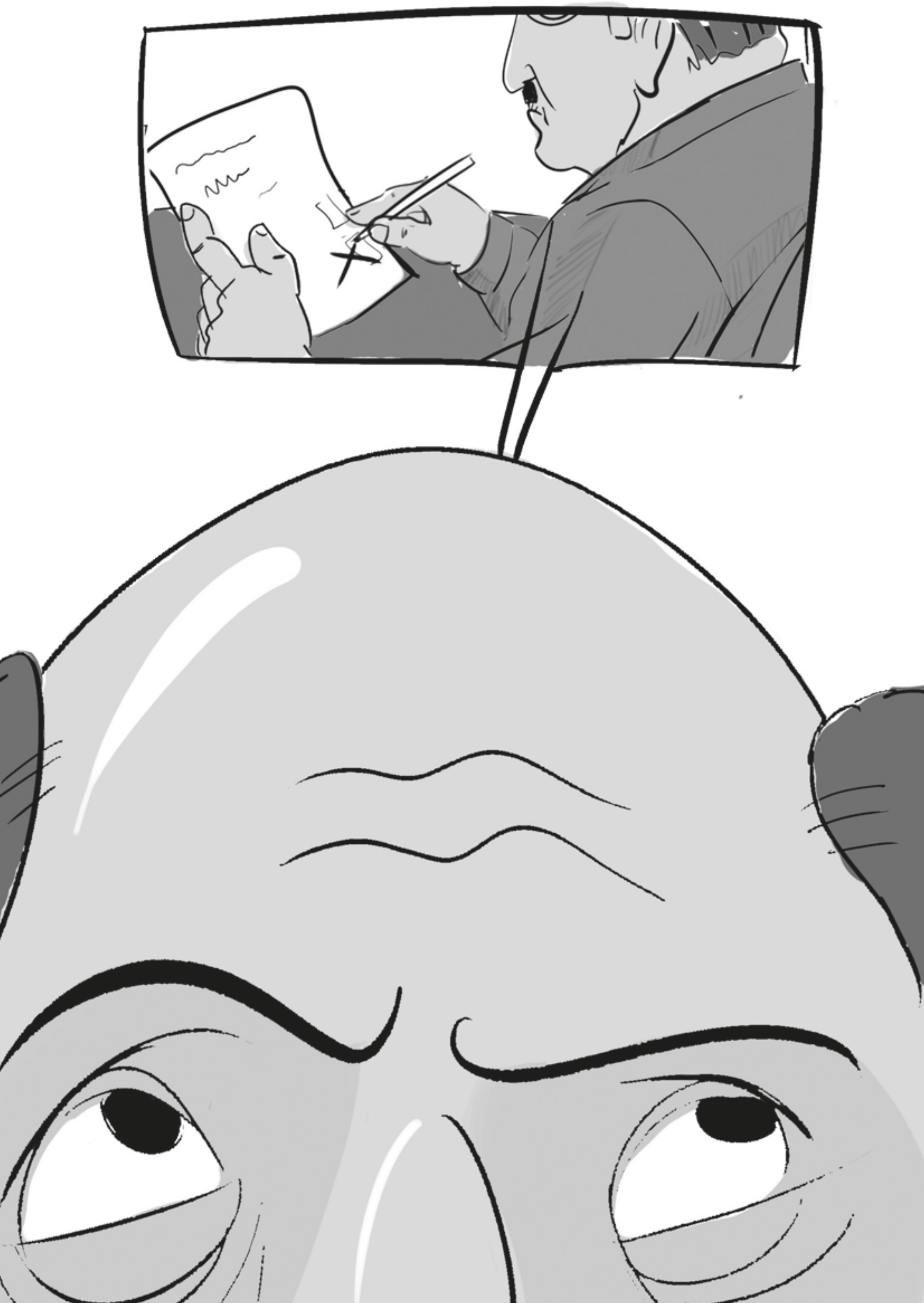


إِنَّهُ لَيْسَ عُصْفوري. لَكِن... لِمَ لا؟ راقَتِ الكَلِمَةُ لي، فتَرَكْتُهُ يُكمِل... عُصْفوري بِحاجَةٍ إلى الرّاحَةِ أَيّامًا مُعَيَّنَةً حَتّى يَلْتَئِمَ جُرْحُه، ويَكْتَمِلَ شِفاءُ جَناحِه. وَقَفْتُ كِتِمْثالِ رَجُلٍ مُحْتارٍ لِلَحَظاتٍ. أَيُّ أَيّامٍ؟! كَيْفَ سَأَعْتَني بِهَذا الكائِنِ؟ بَلْ كَيْفَ سَأَتْرُكُهُ في بَيْتي وأَخْرُجُ وأَنا الَّذي أَعيشُ وَحْدي؟ سَلَّمَني الطَّبيبُ العُصْفور، شَعَرْتُ بِالصَّغيرِ يُحَرِّكُ مِنْقارَهُ في بَزَّتي كَأَنَّهُ يَسْتَشْعِرُ الدِّفْءَ أَوْ يَتَلَمَّسُ الحَنان. لَمْ أَقْدِرْ عَلى المُقاوَمَة، هَذا العُصْفورُ لا يَمْلِكُ أَحَدًا غَيْري.

لَمْ أَعُدْ إلى العَمَلِ يَوْمَها. يا لَلمُصيبَة! كَيْفَ أَسْتَأْذِنُ مِنْ «سُكْرتيرَتي» عَبْرَ الهاتِفِ في طَلَبِ إجازَةٍ؟ وهَلْ فَعَلْتُها مِنْ قَبْل؟ أَنا رَمْزُ النِّظامِ والإِخْلاصِ والتَّفاني، أَطْلُبُ إجازَةً؟!



لَكِنَّ صَوْتًا في أَعْماقي شَبيهًا بِصَوْتِ هَذا العُصْفورِ في أنينِهِ الهَزيل، راحَ يَقول: «أَلَسْتَ إنْسانًا؟ يُصابُ ويَتْعَبُ ويَتَأَلَّم، يَتَعَرَّضُ لِمَكْروهٍ يُجْبِرُهُ عَلى التَّغَيُّبِ ولَوْ يَوْمًا؟!». أَجْبَرَني هَذا الكَلامُ عَلى الرُّضوخِ لِلمَوْقِف، واسْتَرْجَعْتُ مَشاهِدَ عِدَّةً سابِقَةً رَأَيْتُ فيها نَفْسي أَرْفُضُ لِمُوَظَّفٍ إجازَةً كَيْ يَكونَ إلى جانِبِ زَوْجَتِهِ وهِيَ تَضَعُ مَوْلودَهُما، أَوْ مُوَظَّفَةٍ كَيْ تَعْتَنِيَ بِابْنِها وهُوَ مَريضٌ. كَيْفَ كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِك؟! أَظُنُّني كُنْت... هممم... قاسِيًا؟! رُبَّما، بَعْضَ الشَّيْءِ إذًا.



لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَشْعُرُ بِالسُّرورِ أَنَّ جاري مولَعٌ بِالعَصافير. لَمْ يُصَدِّقْ نَفْسَهُ وأَنا أُخْبِرُهُ بِمَأْزَقي هَذا، مُنْهَمِرًا عَلَيْهِ بَسَيْلٍ لا يَنْقَطِعُ مِنَ الأَسْئِلَةِ عَنْ طَعامِ العَصافيرِ وشُرْبِها ونَوْمِها و...و... لَكِنْ بَعْدَ نِهايَةِ نَوْبَةِ ذُهولِهِ هَذِه، والَّتي اسْتَغْرَقَتْ وَقْتًا أَطْوَلَ مِنَ اللّازِم، أَخَذَ شَهيقًا طَويلًا، وغَطَسَ في تَأَمُّلٍ لِلَحَظاتٍ. ثُمَّ اتَّجَهَ إلى إحْدى الغُرَفِ ولَحِقْتُ بِه. يا لَدَهْشَتي! إنَّها غُرْفَةٌ مَليئَةٌ بِأَقْفاصٍ فارِغَةٍ، أَهْداني الجارُ واحِدًا مِنْها، وأَعْطاني عَدَدًا مِنَ النَّصائِحِ وكُتُبًا عَنْ صِحَّةِ العَصافيرِ أَيْضًا، ولَمْ يَنْسَ ـ ذَلِكَ الَّذي اكْتَشَفْتُ طيبَتَهُ



الغامِرَة ـ أَنْ يَهِبَني كيسًا مِنْ طَعامِ العَصافير. لَمْ يُلَمِّحْ حَتّى إلى مَسْأَلَةِ شِجاري مَعَهُ مُنْذُ فَتْرَةٍ بِسَبَبِ صَوْتِ عَصافيرِهِ المَوْضوعَةِ داخِلَ أَقْفاصٍ في شُرْفَتِه. أَظُنُّهُ عَلَّمَني دَرْسًا في كَرَمِ الأَخْلاقِ بِحَقٍّ. انْطَلَقْتُ إلى شِقَّتي، وشَعَرْتُ بِبَهْجَةِ العُصْفورِ وهُوَ يَتَطَلَّعُ إلى مَنْزِلِهِ الجَديد، إذْ وَضَعْتُهُ بِرِفْقٍ في القَفَصِ وعَلَّقْتُهُ في الصّالَة. وَضَعْتُ لَهُ طَعامًا وماءً، حاوَلْتُ إطْعامَهُ بِيَدي لِأَنَّهُ كانَ عاجِزًا عَنِ الوُقوف. لَقَدْ كُنْتُ مُنْشَغِلًا بِهِ حَتّى أَنْساني تَمامًا أَنْ أُجَهِّزَ طَعامًا لِنَفسي!



كانَ هَذا العُصْفورُ هِبَةً. عِنْدَما بَدَأَ يَزولُ عَنْهُ الوَهْنُ مَعَ الأَيّام، أَصابَني بِالفَرْحَةِ مَرَّتَيْن: مَرَّةً عِنْدَما شَعَرْتُ بِنَجاحي في عِلاجِه، ومَرَّةً عِنْدَما عَرَفْتُ كَمْ هُوَ عَظيمٌ إحْساسُ التَّواصُل.

إحْساسٌ عَجيبٌ غَيْرُ مَأْلوفٍ اجْتاحَني وأَنْعَشَني. لَقَدْ كُنْتُ أَقومُ مِنَ النَّوْمِ كُلَّ صَباحٍ، أَتَّجِهُ كَالـ «روبوت» إلى الحَمّامِ ومِنْهُ إلى المَطْبَخ، ثُمَّ إلى غُرْفَتي فَالعَمَل. وبَعْدَ عَوْدَتي، أَمُرُّ بِالجَوْلَةِ نَفْسِها بِاسْتِثْناءِ قِسْمِها الأَخيرِ الَّذي كُنْتُ أَسْتَبْدِلُهُ بِالنَّوم. لا صَدى لِخُطُواتي، ولا تَحاوُرَ إلّا بَيْني وبَيْنَ نَفْسي. الجُدْرانُ صامِتَةٌ،



والرُّكودُ يُخمِدُ الرّوح. الآن، صارَ لي جَليسٌ وأَنيسٌ، شَعَرْتُ بِالتَّكامُلِ والفَرَح. كُنْتُ لا أَتَوَقَّفُ عَنْ مُداعَبَتِه، وما داعَبْتُ أَحَدًا في حَياتي، ثُمَّ أُنْفِقُ الوَقْتَ لِرِعايَتِه، و ما راعَيْتُ إلّا أَوْراقَ عَمَلي. مُدْهِشَةٌ هِيَ الحَياة، خُصوصًا عِنْدَما تَتَذَوَّقُ حَلاوَتَها. وحَلاوَتُها هَذِهِ لا تَجيءُ لَكَ وأَنْتَ وَحْدَكَ أَبَدًا.

بَدَأْتُ مَعَ الوَقْتِ أَتَلَمَّسُ رَغْبَةَ العُصْفورِ في تَحْريكِ جَناحِهِ المُصاب، لَكِنْ هَيْهات... قالَ الطَّبيبُ بَعْدَ أَيّامٍ مُعَيَّنَةٍ: «ولَيْسَ قَبْلَها يا أُسْتاذ».

ذاتَ يَوْمٍ ، اكْتَشَفْتُ أنَّني أَحْمَقُ كَبيرٌ. كَيْفَ أُحاصِرُهُ بَيْنَ هَذِهِ الجُدْران؟ إِنَّهُ عُصْفورٌ، لِماذا لَمْ يَخْطُرْ لي أَنْ أُعَلِّقَهُ في الشُّرْفَة؟! عَلى الأَقَلِّ سَيَرى حَبيبَتَهُ القَديمَة: السَّماء، ويَتَنَفَّسُ ما تَعَوَّدَ عَلَيْهِ مِنْ هَواءٍ. راقَتْ لي حالَتُهُ عِنْدَما



فَعَلْتُ ذَلِك. لَكِنَّ الضّيقَ كانَ لا يَزالُ يُطِلُّ بِرَأْسِهِ كُلَّ لَحْظَةٍ: «هَذا العُصْفور، لِماذا لا يُطْلِقُ صَوْتًا؟ أَلَيْسَ مُرْتاحًا؟ هَلْ هُوَ أَخْرَسُ مَثَلًا؟! لا أَظُنّ...».

كانَ قَلْبي لا يَتْرُكُ لي الفُرْصَةَ لِأُفَكِّرَ وأَنا أَسْتَعِدُّ لِلنُّزولِ إلى العَمَل. لِذا، كُنْتُ أَتْرُكُ العُصْفورَ عِنْدَ جاري وَقْتَ غِيابي. لَقَدْ وَضَعْتُ الخُطَطَ المُحْكَمَةَ كَيْ يَبْقى غَيْرَ وَحيدٍ ولَوْ لِثانِيَةٍ واحِدَةٍ. فَإذا خَرَجَ جاري لِشِراءِ بَعْضِ الحاجاتِ سَتَعْتَني بِهِ زَوْجَتُه، وإذا انْصَرَفَتِ الزَّوْجَةُ لِلطَّبْخِ أَوِ التَّنْظيف، فَابْنُهُما الصَّغيرُ

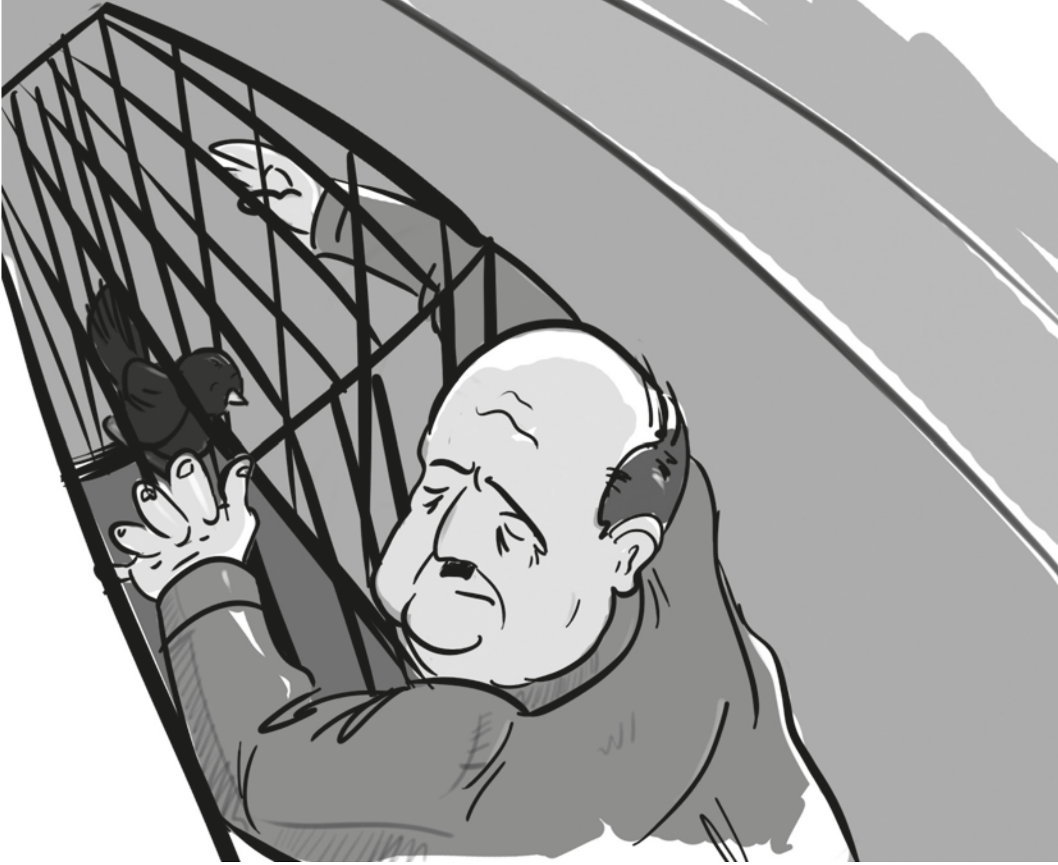


مَوْجودٌ، لَنْ يَكُفَّ عَنْ مُلاطَفَتِه. وإذا فَرَضْتُ ظُروفٌ طارِئَةٌ خُروجَ الجَميعِ أَوِ اخْتَفوا جَميعًا بِفِعْلِ إشْعاعٍ إلِكْترونِيٍّ يُبَخِّرُ البَشَر، فَعَصافيرُ جاري مَوْجودَةٌ، تُجاوِرُ صاحِبي، تَشُدُّ مِنْ أَزْرِه، وتُخَفِّفُ مِنْ وَحْشَتِه!



ذاتَ فَجْرٍ، سَمِعْتُ صَوْتًا مُلْهِمًا... صَوْتًا جَذَبَني كَالمَسْحورِ إلَيْه، صَوْتًا أَشْبَهُ بِالـ... الـ... الزَّقْزَقَة! هَرَعْتُ إلى الشُّرْفَةِ لِأَتَأَكَّد... نعَم، إنَّهُ عُصْفوري وقَدْ عادَتْ إلَيْهِ زَقْزَقَتُه. فَرِحْتُ وقَفَزْتُ راقِصًا عَلى الرَّغْمِ مِنْ كَوْني في الشُّرْفَة. احْتَضَنْتُ العُصْفورَ بِقَفَصِه، ورَأَيْتُ في نَظْرَتِهِ شَيْئًا مِنَ البَهْجَة. صَحيحٌ لَمْ يَكُنْ يَبْتَسِم، لَكِنَّ نَبْرَتَهُ وَشَتْ* بِإحْساسِه، وزَقْزَقَتُهُ كانَتْ أَجْمَلَ مِنْ أَلْفِ ابْتِسامَةٍ.

*وَشَتْ بـِ: دَلَّتْ على



خَرَجْتُ يَوْمَئِذٍ إلى العَمَلِ، والتَّفاؤُلُ يَجْري في عُروقي، تَفاؤُلٌ أَجْبَرَني عَلى رُؤْيَةِ أُمورٍ لَمْ أَكُنْ أَراها قَبْلًا. انْطِلاقُ النَّسيمِ يَحْتَفِلُ بِالصَّباحِ طَيَرانًا، هَزْرُ الأَطْفالِ البَريءُ وهُم في طَريقِهِم مَعًا إلى المَدْرَسَة، تَحِيَّةُ صَباح الخَيْرِ الَّتي كانَ

يَتَبَرَّعُ بِها بائِعُ الجَرائِدِ العَجوزُ ولَمْ أُبادِلْهُ إيّاها يَوْمًا! كَيْفَ لَمْ أَشْعُرْ بِذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ قَبْل ؟!



تبَدَّلَ وَجْهُ «سُكْرتيرَتي» إلى الدَّهْشَةِ عِنْدَما أَلْقَيْتُ عَلَيْها تَحِيَّةَ الصَّباح. طَبْعًا، كُنْتُ أَلْقيها مِنْ قَبْل، إنَّما... مُجَرَّدَةً مِنَ الابْتِسام! يَبْدو أَنَّ روحًا جَديدَةً انْبَعَثَتْ في داخِلي. إذْ إنَّني لَمْ أُطِقِ المَكْتَبَ مِنْ دونِ زُهورٍ. نَعَم، زُهورٌ! لَقَدْ مَيَّزَتْ عَيناي أَنَّ جَوَّ المَكانِ خانِقٌ، لا لَوْنَ فيه؛ أَريكَةٌ جِلْدِيَّةٌ قاتِمَةٌ تَمْتَزِجُ مَعَ مِنْضَدَةٍ سَوْداءَ مُتَماهِيَةٍ مَعَ سِتارَةٍ وخِزانَةٍ داكِنَتَيْنِ تَتَآمَرُ كُلُّها مَعَ خَشَبٍ بُنِّيٍّ لِلأَرْضِيَّة. أَيْنَ اللَّوْنُ الأَحْمَر مَثَلًا؟ سَأُرْسِلُ بِطَلَبِ زُهورٍ حَمْراءَ في الحال.

شَعَرَ المُوَظَّفونَ بِهَذا التَّحَوُّلِ في سُلوكي.



وفي اجْتِماعٍ، فوجِئْتُ بِأَنَّني أَسَأَلُ
أَحَدَهُم عَنْ صِحَّتِه. إِنَّ الضُّعْفَ يُصيبُنا مِنْ
حَيْثُ لا نَدْري. سَيْطَرَتِ البَهْجَةُ عَلى كَلِماتي؛
فَلَقَدْ كُنْتُ سَعيدًا. انْتَقَلَتِ البَهْجَةُ إِلَيْهِم أَيْضًا؛
وصارَ اجْتِماعُنا لَطيفًا مُحَبَّبًا. تَشَجَّعَ أَحَدُ



الحاضِرينَ واسْتَأْذَنَ في عَرْضِ فِكْرَةٍ، سَمَحْتُ لَه، فَارْتَفَعَ حاجِباهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وتَلا فِكْرَةً... واضِحٌ أنَّها كانَتْ مَكْبوتَةً في داخِلِهِ مُنْذُ زَمَنٍ. ولَمّا بَهَرَني ذَكاؤُهُ سَأَلْتُهُ في عَجَبٍ شَديدٍ: «لِماذا لَمْ تَعْرِضْ عَلَيَّ هَذِهِ الفِكْرَةَ الرّائِعَةَ مِنْ قَبْل؟».



احْمَرَّ وَجْهُه، وأَصابَهُ الحَياء، وتَذَرَّعَ بِأَنَّني لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتٌ.

أَنا أَعْلَمُ ما لَمْ يَقُلْهُ المُوَظَّفُ المُهَذَّب: «لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتُ لِلاسْتِماع!». بَعْدَ نِهايَةِ هَذا الاجْتِماع، مَسَّني شَيْءٌ مِنَ المُتْعَة. كانَتِ الاجْتِماعاتُ السّابِقَةُ كُلُّها جامِدَةً، روتينِيَّةً، لا جَديدَ فيها ولا إقْبالَ عَلَيْها.

أَتَذَكَّرُ أَنَّ الجَميعَ كانوا يَجْلِسونَ كَالمَغْصوبين، يَنْظُرونَ إلَيَّ بِتَوَجُّسٍ*، كاتِمينَ أَغْلَبَ ما يُريدونَ قَوْلَه. لَكِنْ بَعْدَ اليَوْم، الأمَرُ سَيَتَغَيَّر. لَنْ يَتَقَدَّمَ العَمَلُ مِنْ دونِ أَنْ يُحِبَّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَه، لا أَنْ يَخافَ مِنْه.

*تَوَجُّس: تَخَوُّف

بَعْدَ أَيّامٍ قَليلَةٍ، رَأَيْتُ ما اعْتَبَرْتُهُ أَسْعَدَ لَحَظاتِ حَياتي. لَقَدْ سُعِدْتُ عِنْدَما أَهْداني والِدي دَرّاجَةً حَمْراءَ بِمُناسَبَةِ نَجاحي في الابْتِدائِيَّة، وعِنْدَما شَرِبْتُ عَصيرَ الفَراوْلَةِ المُثَلَّجَ لِلمَرَّةِ الأولى، وعِنْدَما حَقَّقْتُ مَرْكَزَ «الأَوَّلَ» في السَّنَةِ النِّهائِيَّةِ في الكُلِّيَّة. لَكِنَّ لَحْظَةً أُخْرى اسْتَطاعَتْ أَنْ تَسْبِقَ هَذِهِ اللَّحَظاتِ كُلَّها لِتَجْلِسَ مُتَرَبِّعَةً عَلى عَرْشِ قَلْبي وقِمَّةِ ذِكْرَياتي؛ لَقَدْ خَفَقَ جَناحُ صاحِبي أَخيرًا... خَفَقَ كَما خَفَقَتْ نَبضاتُ قَلْبي بِالضَّبْط.

سالَتْ دَمْعَةُ سَعادَةٍ فَوْقَ خَدّي وفَتَحْتُ بابَ القَفَص، أَقْبَلَ عُصْفوري شاكِرًا. الآن، والآنَ فَقَط، يَسْتَطيعُ أَنْ يَطيرَ مِنْ جَديدٍ، يَحْتَضِنَ الحُرِّيَّةَ ويُغَنِّيَ لِلـ...

لَكِن، كَيْف؟

هَذا يَعْني أنَّني سَأُطْلِقُه...

سَأُطْلِقُهُ بَعيدًا إلى السَّماءِ وأَنْفَصِلُ عَنْه!

ما هَذِهِ المُشْكِلَةُ البَشِعَة؟!



أَخَذَ التَّفْكيرُ يَلْتَهِمُني في تَلَذُّذٍ؛ ما هُوَ التَّصَرُّفُ السَّليمُ في هَذا الأَمْرِ؟ وَقَفْتُ في مَحْكَمَةٍ أُدافِعُ عَنْ أَنَّ هَذا العُصْفورَ قَدْ صارَ صَديقي الوَحيد. كَيْفَ لي أَنْ أُلْقِيَ بِهِ في الطَّريق؟ إنْ لَمْ يَكُنْ هَذا فِعْلًا غَيْرَ رَحيمٍ بي، فَسَيَكونُ غَيْرَ رَحيمٍ بِه. لَكِنَّ القاضي، أَوْ بِالأَحْرى ضَميري، ذَكَّرَني في حُنُوٍّ* بِما لَمْ أَكُنْ أَراه. أَلَيْسَ لِهَذا العُصْفورِ عُشٌّ في مَكانٍ ما؟ أَلَيْسَ مُمْكِنًا أَنْ يَكونَ لَهُ صِغارٌ تَصْرُخُ شَوْقًا إِلَيْهِ كَيْ يَعودَ إِلَيْها؛ لِيُطْعِمَها، ويُدْفِئَها، ويُؤْنِسَ وِحْدَتَها؟

*حُنُوٌّ: عَطْفٌ



كَيْفَ سَتَتَعَلَّمُ الطَّيَرانَ إذًا أَوْ مُواجَهَةَ العالَم؟!
مَنْ أَنْتَ كَيْ تَحْرِمَها مِنْ رَبِّ بَيْتِها وحامي
أَمْنِها؟! ثُمَّ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ صِغارٌ، لِماذا تَحْرِمُهُ
مِنَ التَّواصُلِ وصُنْعِ الحَياة؟ لِماذا تَمْنَعُهُ مِنَ
الانْدِماجِ مَعَ الطَّبيعَةِ والتَّمَتُّعِ بِالكَوْنِ الواسِع؟!

الحَقُّ يُقال؛ أَنا لَمْ أُفَكِّرْ سابِقًا في أَيٍّ مِنْ هَذا.
لِذا، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّني أَعْلَمُ ما سَتُسَبِّبُهُ
لَحْظَةُ الفُراقِ مِنْ عَذابٍ شَديدٍ، فَإنَّ تَخَيُّلَ
حالِ عُصْفوري خارِجَ قَفَصِهِ سَيُلَطِّفُ حالي
ويُسْعِدُ أَوْقاتي.



فَتَحْتُ بابَ القَفَص...

طَبَعْتُ قُبْلَةً رَقيقَةً أَخيرَةً عَلى رَأْسِه...

شَعَرْتُ بِوَلَعِهِ لِفَرْدِ جَناحَيْهِ والتَّحْليقِ بِنَشاطٍ.

أَطْلَقْتُهُ عالِيًا... فَراحَ يُحَلِّقُ ويُحَلِّقُ ويُحَلِّق... يَمْلَأُ السَّماءَ حُبًّا، والدُّنْيا غِناءً.

بَعْدَ فَتْرَةٍ، كُنْتُ في مَكْتَبي أَعْمَلُ كَالمُعْتادِ إنَّما مُسْتَمْتِعًا، مُسْتَمْتِعًا بِابْتِساماتِ المُوَظَّفينَ مَجّانِيَّةٍ غَيْرِ مُنافِقَةٍ، هانِئَةٍ صادِقَةٍ، مُسْتَمْتِعًا بِتَطَوُّرِ العَمَلِ إلى الأَفْضَل، وتَشَجُّعِ الجَميعِ في طَرْحِ الجَديدِ وعَدَمِ الخَوْفِ مِنَ المُناقَشَة.



وبَيْنَما كُنْتُ أَكْتُب، وعَبيرُ الوَرْدِ البَلَدِيِّ يَطوفُ في الأَجْواءِ كَمَنْ يَحْمِلُ نَبَأً سَعيدًا؛ سَمِعْتُ صَوْتًا جَميلًا. إِنَّهُ صَوْتُ زَقْزَقَةٍ يَتَأَجَّجُ حَماسَةً، وكَأَنَّهُ يُنادي في لَهْفَةٍ. مِنْ دونِ جِدالٍ،



نَهَضْتُ لِأَفْتَحَ شُبّاكَ غُرْفَتي. وهُناك، وَجَدْتُهُ في الرُّكْنِ نَفْسِه، يَقْفِزُ بِساقَيْهِ الصَّغيرَتَيْن، ويَهُزُّ جَناحَيْهِ الكَسْتَنائِيَّيْن، يُطَمْئِنُني عَلى صِحَّتِهِ ويَمْنَحُني فَرْطَ مَحَبَّتِه. حَدَثَ ساعَتَها ما لَمْ أَعْرِفْهُ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ: لَقَدْ جاءَ صَديقٌ لِزِيارَتي!

الموضوع : الرّفق بالحيوان والاهتمام به، المساعدة، احترام الآخرين.

يَحْتاجُ العالَمُ لِزَقْزَقَةِ العَصافيرِ الرَّقيقَة، ما عَدا بَطَلَ قِصَّتِنا الَّذي يَكْرَهُها بِشِدَّةٍ. لَكِن، تَنْقَلِبُ الأُمورُ عِنْدَما يُصادِفُ عُصْفورًا مَريضًا، ويَسْعى جاهِدًا أَنْ يُعيدَ إِلَيْهِ زَقْزَقَته... فَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِك؟ وهَلْ سَيَنْجَحُ في سَعْيِه؟

مؤسّسة الفكر العربي
عربي21
معايير تصنيف عربي21 وهنادا طه
س

ISBN 614-442-277-9
9 786144 422779
Book # A 1240
أصالة